

علوم القدماء عند العرب

ولا سيما في القرن الخامس للهجرة بمصر

للدكتور يوسف شخت

أستاذ الفلسفة بكلية الآداب

أجمع علماء الشئون الشرقية على أن أحد أركان المدنية الإسلامية راجع إلى المدنية الاغريقية في آخر مراحلها فلم يكد العرب يشتركون في تدعيم صرح تلك المدنية العظيمة إلا ببلغتهم ودينهم. أما معظم المواد الأخرى فهو مأخوذ من ذلك التراث المجيد الذي تركه اليونان والذي قد توطن في البلاد الشرقية منذ عصر الاسكندر ذي القرنين. ثم جاءت الدولة العربية فأكملت توطن العلوم والآداب الاغريقية في الشرق الأدنى، ومكنتها من الازهار في تلك المنطقة الرحبة التي احتضنتها في دائرة حدودها السياسية. فنجد أن حركة ترجمة الكتب اليونانية في الفلسفة والعلوم الطبيعية والطب التي كانت قد بدأت في تلك البلاد قبل فتح العرب لها قد نشطت إلى حد بعيد في آخر القرن الثاني وفي القرن الثالث للهجرة. ولما كانت لغة التراجم الأولى هي اللغة السريانية فإنها بهذا الوضع بقيت الوسيط بين تراث اليونان وبين مدنية الاسلام كما كان معظم المترجمين من النصارى النسطوريين وفي مقدمتهم الحكيم الفيلسوف حنين بن اسحق (١٩٤ - ٢٦٠) الذي كان يشغل في بيت الحكمة، ذلك المعهد العلمي الذي أسسه المأمون الخليفة العباسي ببغداد لترجمة كتب العلوم. حنين هذا هو الذي خلق المركز الرائع لأراء جالينوس في القرون الوسطى في الشرق ومنه إلى الغرب

ويشهد بالجهود العظيم الذي بذل في ترجمة الكتب اليونانية أن الخلفاء أنفقوا على الرحلات للبحث عن مخطوطات قيمة، وأن حنيناً، كما أوضح بنفسه لم يكن بأصل واحد وإنما كان يراجع بقدر الامكان لا أقل من ثلاث نسخ ليستطيع بمقارنتها الحصول على متن صحيح

كانت هذه أي - دورة التراجم - مرحلة استعداد، وتبعها في القرن الرابع والنصف الأول من القرن الخامس الدور العظيم للعلوم

الطبيعية والطبية في بلاد الاسلام. وجد علماء المسلمين أنفسهم بعدئذ على أساسين متين من العلوم اليونانية مضافاً إليها بعض نتائج دراسات الفرس والهنود، وبدأوا يضيفون إلى هذا التراث من مبتكراتهم. وفي الوقت نفسه فقد المسيحيون مركز احتكارهم (أوكاد) لهذه العلوم وارتفع إلى مستواهم المسلمون

إنَّ أبرز ما في ذلك العصر من الشخصيات العلمية الفذة ثلاثة: محمد بن زكرياء الرازي (المتوفى سنة ٣١١) وهو أكبر أطباء العالم الاسلامي وأحد أطباء الدنيا الخالدين، وحسين بن عبد الله بن سينا (٣٧٠ - ٤٢٨) وكان فيلسوفاً وباحثاً طبيعياً له أكبر الأثر في أوروبا بصفته وسيطاً لنقل الطب الاسلامي إليها بمؤلفه الكبير المسمى بالقانون، وأبو ريحان محمد بن أحمد البيروني (٣٦٢ - ٤٤٠) وهو أكبر الباحثين الطبيعيين في دائرة الحضارة الاسلامية وأبدعهم تفكيراً ومنهجاً.

ما أجود ثقافة هذا الرجل الخوارزمي العجيب وإحاطته بمختلف العلوم والفنون من يونانية وعربية وإسلامية، كما يظهر من مقدمة كتابه في الصيدلة إذ يقول:

« وكل واحدة من الأمم موصوفة بالتقدم في علم ما أو عمل، واليونانيون منهم قبل النصرانية موسومون بفضل العناية في المباحث وترقية الأشياء إلى أشرف مراتبها وتقريبها من كمالها. ولو كان ديسقوريدوس في نواحيها، وتصرف جهده على تعرف ما في جبالنا وبواديها، لكانت تصير حشائشها كلها أدوية، وما يجتنى منها بحسب تجاربه أشفيء، ولكن ناحية المغرب فازت به وبأمثاله وأفارتنا بمشكور مساعيم علماء وعملا. وأما ناحية المشرق فليس فيها من الأمم من يهتزل علم غير الهند، ولكن هذه الفنون خاصة عندهم مؤسسة على أصول مخالفة لما اعتدناه من قوانين المغريين، ثم المباشنة بيننا وبينهم في اللغة والملة والعادات والرسوم وإفراطهم في المجانية بالطهارة والنجاسة تزيل المخالطة عن البين وتفصم عرى المباحثة. ديننا والدولة عريان ونوأمان يرفرف على أحدهما القوة الالهية وعلى الآخر البد السبوية... وإلى لسان العرب نقلت العلوم من أقطار العالم فازدانت وحلت في الأفتدة، وسرت محاسن اللغة في الشرايين والأوردة، وإن كانت كل أمة تستحل لغتها التي ألفتها واعتادتها واستعملتها. »

لم ينحصر تقدير العلوم اليونانية مثل هذا في فئة معينة من

العلماء ، بل كان منتشرا بين الجميع طول القرن الرابع .
 ها هي ذى بغداد بمدرستها الفلسفية الطيبة التي هي خليفة
 مدرسة الاسكندرية المشهورة ، ولا يصعب علينا اقتفاء أثر انتقالها
 من الاسكندرية إلى بغداد عن طريق انطاكية وحران . ومن
 كبار العاملين بها في القرن الرابع المترجم المسيحي أبو بشر
 متى بن يونان (المتوفى سنة ٣٢٨) ، وأبو نصر محمد الفارابي
 الفيلسوف الاسلامي (المتوفى سنة ٣٣٩) ، وتلميذه الفيلسوف
 المسيحي يحيى بن عدي (المتوفى سنة ٣٦٤) ، والباحث المحقق
 أبو الحسن المسعودي (المتوفى سنة ٣٤٦) ، وغيرهم من الفضلاء .
 وقد خلد الأديب أبو حيان التوحيدى (المتوفى بعد سنة ٤٠٠)
 في مؤلفه المسمى بالمقابسات ، ذكر مجالس أبي سليمان السجستاني
 المنطقي (المتوفى بعد سنة ٣٩١)
 فكان القرن الرابع هذا أزهى عصر لدرس العلوم اليونانية
 في الحضارة الاسلامية ، واستمرت تلك الدراسات وازدهرت
 في القرن الخامس أيضا خصوصا في بغداد ، مع امتداد أشعتها
 إلى بلاد أخرى ولا سيما إلى مصر .
 نتمنى أن نبث ذلك الدور الأخير لنفوذ التفكير اليوناني
 في الشرق الأدنى بمناسبة مخطوط محفوظ في إحدى مدارس
 الموصل يشمل مناظرة دارت بين طبيين فيلسوفين ، وإن كانا
 دون أولئك الفحول درجة إلا أنهما شغلا مكانا جليلا في تاريخ
 الطب والعلوم الطبيعية في عالم الاسلام . هما أبو الحسن المختار
 ابن بطلان من نصارى بغداد ، وعلى بن رضوان المصري . تتلخص
 مناظرتهم في أن كل واحد منهما كان يرغب في التدليل على علو
 كعبه في علوم القدماء ، وعلى مقدرته عن الآخر وبروزه فيها
 عليه . فإنا إن اطلعنا على تراجم حياتهما كما جاءت في تاريخ
 الحكماء لابن القفطى ، وفي عيون الأنبياء في طبقات الأطباء لابن
 أبى أصيبعة ، نرى أن شخصية كل واحد منهما ليس بينها وبين
 شخصية الآخر أى تشابه ، حتى ليخال القارىء أنه يستحيل عليهما
 أن يكونا صديقين ؛ على أن تنافسهما ربما يرجع أيضا إلى غيرة
 كل منهما من صاحبه في صناعة الطب .
 درس ابن بطلان الطب والفلسفة في الكرخ (حى من بغداد)
 على أشهر الأساتذة ، وأكثرهم من النصارى ، وتدل مؤلفاته على
 أنه لم يكن متطبيا فقط ، بل تبحر أيضا في الآداب العرية والعلوم
 الاسلامية ، كما قال عنه ابن أبى أصيبعة : « وكان ابن بطلان أعذب
 ألقاظا (أى من ابن رضوان) وأكثر ظرفا وأميز في الأدب
 وما يتعلق به . وما يدل على ذلك ما ذكره في رسالته التي رسمها
 بدعوة الأطباء . ففي هذا الكتاب يحمل ابن بطلان على الفشارين
 المدعين بالطب ، ويظهر فسادهم ومضارهم الشائعة ذاك الحين .
 يغلب على الظن أن ابن بطلان لم يكن شابا عند ما ترك بلده
 التي حرمت عليه العودة إليها في مستهل شهر رمضان سنة ٤٤٠
 متجها إلى رحلة طويلة مارا بالأنبار فالرحبة فالرصافة فغلب
 حيث مكث زمنا ، ثم واصل السفر إلى انطاكية فاللاذقية فيافا
 حتى جاء مصر حيث مكث ثلاثة أعوام تعرف فيها بابن رضوان .
 ثم غادر مصر بعدئذ إلى القسطنطينية ثم عاد منها في آخر الأمر
 إلى انطاكية . قال ابن القفطى : « فأقام بها وقد سُم كثرة الأسفار ،
 وضاق عطشه عن معاشره الأغمار ، فغلب على خاطره الانقطاع
 قزلا بعض أديرة انطاكية وترهب وانقطع إلى العبادة إلى أن
 توفي بها . وكانت وفاته - خلافا لما زعم ابن القفطى - بعد
 سنة ٤٥٥ بزمان لأنه قد أهل لبناء يبارستان انطاكية في السنة
 المذكورة . وعند ما كان في مصر أرسل ابن بطلان إلى المؤرخ
 الكاتب البغدادي هلال بن المحسن الصابي كتابا مفصلا عن
 رحلته ، دل على دقة ملاحظته وعنايته بكل ما رآه ، كما أنه لا يزال
 هذا الكتاب مرجعا جغرافيا تاريخيا مفيدا للنواحى التي زارها
 ابن بطلان ، فلذلك أورد ياقوت الحموى في كتابه المسمى بمعجم
 البلدان كثيرا من كلام ابن بطلان . ودليلا على كل هذا نذكر
 شيئا من وصفه لمدينة اللاذقية . قال : « وهى مدينة يونانية لها ميناء
 وملعب وميدان للخيول مدور ، وبها بيت كان للأصنام وهو اليوم
 كنيسة ، وكان في أول الاسلام مسجدا ، وهى راكبة البحر وفيها
 قاض للمسلمين وجامع يصلون فيه وآذان في أوقات الصلوات
 الخمس ، وعادة الروم إذا سمعوا الآذان أن يضربوا الناقوس ،
 وقاضى المسلمين الذى بها من قبل الروم ،
 أما ما ذكره من أخبار الروم والمسلمين فهو إيضاح للحالة
 كما كانت . فهى دورة الانحلال والضعف السياسى للدولة الاسلامية ،
 قد أصبحت البلاد التى كانت تتبع خلافة بغداد مستقلة ، وقامت
 خلافة الفاطميين بمصر ، أضف إلى هذا تفشى الوباء والمجاعات
 باقطار عديدة وموت كثيرين من رجال العلم أحسن الباقون منهم
 بفقدانهم وبالحلوة من بعدهم . ولأنه لما يسر ان نلاحظ ان تلك
 البلايا كلها لم تستطع ان تقطع النهوض العلى العظيم ولا اتصال

فقد كانوا ينقلون عنه من التعاليل الطيبة والأقاويل النجومة والألفاظ المنطقية ما يضحك منه إن صدق النقلة .

على أنه إذا اعتبره ابن أبي أصيبعة أطب من ابن بطلان وأعلم بالعلوم الحكيمة وما يتعلق بها ، فربما صح حكمه بالنسبة لمهارته الطيبة ، إذ استشاره بعض ملوك مكران كتابة . أما في الفلسفة والأدب فلا نجد سيلاً إلى اعتباره متكافئاً مع ابن بطلان كما يظهر من مؤلفاته . رغماً عما يذكره عن نفسه في قوله : « وأما الأشياء التي أنزه فيها فلا في فرضت نزهتي ذكر الله عز وجل وتمجيده بالنظر في ملكوت السماء والأرض ؛ وكان قد كتب القدماء والعارفون في ذلك كتباً كثيرة رأيت أن أقصر منها على ما أنصه من ذلك : خمسة كتب من كتب الأدب ، وعشرة كتب من كتب الشرع ، وكتب أبقراط وجالينوس في صناعة الطب وما جانسها مثل كتاب الحشائش لذيسقوريدس ، وكتب زوفس وأرياسيوس وبولس ، وكتاب الحاوي للرازي ، ومن كتب الفلاحة والصيدلة أربعة كتب ، ومن كتب التعاليم المجسطي ومداخله وما انتفع به فيه ، والمربعة لبطلينوس ، ومن كتب العارفين كتب أفلاطون وأرسطوطاليس والاسكندر واثمسطيوس ومحمد الفارابي وما انتفع به فيها ؛ وما سوى ذلك إما أيعه بأى ثمن اتفق ، وإما أن أخزنه في صناديق ، ويعه أجود من خزنه ، وجدير بالذكر أن ابن رضوان المسلم اكتفى بذكر الكتب الإسلامية اجمالاً وتادية للواجب بينما فصل ذكر الكتب المنقولة عن اليونانية واحداً واحداً .

لا حاجة لنا بإيراد تفاصيل اطراء ابن رضوان عن نفسه ومدحيه لعمله اليومي ووصفه لمحاسن ترتيب بيته ، ولكننا نذكر آخر أمره (عن ابن أبي أصيبعة) :

« كان قد أخذ يتيمه رباها وكبرت عنده ، فلما كان في بعض الأيام خلالها الموضع وكان قد ادخر أشياء نفيسة ، ومن الذهب نحو عشرين ألف دينار ، فاخذت الجميع وهربت ولم يظفر منها على خبر ، ولا عرف أين توجهت فتغيرت أحواله من حينئذ . » تغير عقله في آخر عمره ، ، وكانت وفاة ابن رضوان في سنة ثلاث وخمسين وأربعائة .

بدل على تفانيه في حب علوم قدماء اليونان افتخاره برؤية جالينوس في منامه ، قال :

العلماء بعضهم ببعض برحلات علمية وراء كل الحدود السياسية ولا ارتباطهم بروابط الصناعة رغماً عن اختلاف العقائد الدينية على أن ابن بطلان النصراني هذا الذي كان محترماً ومقدراً عند زملائه المسلمين قاسى متاعب من المسيحيين أنفسهم ؛ فانه « لما دخل إلى حلب وتقدم عند المستولى عليها سألته رد أمر النصارى في عبادتهم إليه ، فولاه ذلك ، وأخذ في إقامة القوانين الدينية على أصولهم وشروطهم فكرهوه ، وكان بحلب رجل كاتب طبيب نصراني ... يحمل عليه نصارى حلب فلم يتمكن ابن بطلان المقام بين أظهرهم ، وخرج عنهم ... وللحليين النصارى فيه هجو قالوه عند ما تولى أمرهم ، (مختصر من كلام ابن القفطى)

قال ابن أبي أصيبعة : « وتوفي ابن بطلان ولم يتخذ امرأة ولا خلف ولداً ، ولذلك يقول من أبيات :

ولا أحد إن مت يبكى لميتى سوى مجلسي في الطب والكتب با كيا
كان ابن رضوان على النقيض لابن بطلان في أكثر من ناحية ؛ فلم يكن لابن رضوان في صناعة الطب معلم ينتسب إليه ، ولم يغادر نواحي القاهرة مرة ، وكان معجباً بنفسه طامعاً بخيلاً ، لما نقد ماله ذهب عقله ، ولكنه مع ذلك كله لم يخل من خلق وعقل يجعلنا على العطف عليه والاعتجاب به . هذا ما يمكننا تذكيره عن سيرة حياته : ذكر ابن أبي أصيبعة شيئاً غير قليل منها .

كان مولد ابن رضوان بالجيزة وكان أبوه فراناً ، قال : « فلما بلغت السنة السادسة أسلمت نفسي في التعليم ، ولما بلغت السنة العاشرة انتقلت إلى المدينة العظمى وأجهدت نفسي في التعليم . ولما أقت أربع عشرة سنة أخذت في تعليم الطب والفلسفة ولم يكن لي مال أنفق منه فلذلك عرض لي في التعليم صعوبة ومشقة ، فكنت مرة أتكسب بصناعة القضاء بالنجوم ، ومرة بصناعة الطب ، ومرة بالتعليم . ولم أزل كذلك وأنا في غاية الاجتهاد في التعليم إلى السنة الثانية والثلاثين ، فاني اشتهرت فيها بالطب وكفاني ما كنت أكسبه بالطب ، بل وكان يفضل عني إلى وقى هذا ، وهو آخر السنة التاسعة والخمسين ، أما ابن القفطى فيقول « وكان في أول أمره منجماً يقعد على الطريق ويرتزق لا بطريق التحقيق كمادة المنجمين ، ثم قرأ شيئاً من الطب وشيئاً من المنطق وكان من المغلقين لا المحققين . ومع هذا تلمذ له جماعة من الطلبة وأخذوا عنه ، وسار ذكره ، وصنف كتباً لم تكن غاية في بابها ، بل هي مختطفة ملتقطة مبتكرة مستنبطة . فاما تلاميذه

« وقد كان عرض لي منذ سنين صداع مبرح عن امتلاء في عروق الرأس فقصدت فلم يسكن ، وأعدت الفصد مراراً وهو باق على حاله ، فرأيت جالينوس في النوم وقد أمرني أن أقرأ عليه حيلة البرء فقرأت عليه منها سبع مقالات ، فلما بلغت إلى آخر السابعة قال : فنسيت ما بك من الصداع ، وأمرني أن أحجم القمحودة من الرأس ؛ ثم استيقظت فحجمتها فبرأت من الصداع على المكان ، هذا ما يكنى تعريفاً بابن بطلان وابن رضوان ، وتوجه الآن إلى المناظرة المشهورة التي قامت بينهما . قال ابن أبي أصيبعة : « وكان ابن رضوان كثير الرد على من كان معاصره من الأطباء وغيرهم ، وكذلك على كثير ممن تقدمه ، وكانت عنده سفاهة في بحثه وتشنيع على من يريد مناقشته . وأكثر ذلك يوجد عند ما كان يرد على حنين بن اسحق وعلى أبي الفرج بن الطبيب (وكان أبو الفرج هذا أستاذاً لابن بطلان بعداد) وكذلك أيضاً على أبي بكر محمد بن زكريا الرازي . ومن هذا النوع كانت مناقشته لابن بطلان . وقال أيضاً : « وكانت بين ابن بطلان وابن رضوان المراسلات العجيبة ، والكتب البديعة الغريبة ، ولم يكن أحد منهم يؤلف كتاباً ولا يبتدع رأياً إلا ويرد الآخر عليه ويسفه رأيه فيه . فاول من ابتدأ المجادلة هو ابن رضوان بمناسبة رسالة لابن بطلان لم تكن موجهة ضده إطلاقاً ، بل دارت حول مطلب من مطالب العلوم الطبيعية كثر الكلام فيه بين أطباء ذلك العصر ، وهو : أيهما أحر طبيعة الفرج أم الفروج ؟ وكان ابن بطلان يعتقد - كما اعتقد السواد الأعظم من الأطباء - أن الفرج أحر من الفروج ، ولكن اليرودي الطبيب الدمشقي الذي قد درس مع ابن بطلان على أبي الفرج ابن الطبيب كان عاباً أطباء مصر بمسألة ألزمهم بها أن يكون الفروج أحر من الفرج . فجمع ابن بطلان في مقالته حججاً يعضدها رأي اليرودي وينقض الرأي الصحيح . بقياس المتعدين تطريقاً لهم ورياضة ... بقياس العناء أن يظهر فضلهم في حلول الشكوك الغامضة ... بقياس المذعنين تبكيثاً لهم وهجنة ، وأورد في آخرها واحداً وثمانين سؤالاً تتعلق بالبيض والحضان والفراريج يدعو الأطباء المصريين إلى الإجابة عنها يظهر أن ابن رضوان ظن نفسه أو بعض تلاميذه مقصوداً بملاحظة من ملاحظات ابن بطلان في رسالته هذه فاجاب عليها بمقالة لم يبحث فيها عن موضع المشكلة نفسها أو يرد على أدلة المعاينة ؛ بل نجده فيها أقرب إلى السفسطة والطنعن منه إلى أصول الجدل العلمي .

وحسبنا أن نلتقط من مقالة ابن رضوان هذه موضعاً يذكر فيه المزاي التي لا يخلو منها الطبيب الكامل ، قال : « وقد بين جالينوس أن الطبيب فيلسوف كامل ، وأنه من قصر عن ذلك فهو متطبب لا طبيب . والفيلسوف الكامل هو الذي قد حصل له العلم التعليم والطبيعي والالهي والمنطقي ، فالطبيب هو الذي حصل كل واحد من هذه على الكمال ، لم يقتنع ابن رضوان بهذه المقالة بل ألف رسالة أخرى ضد ابن بطلان يمكننا الحكم بأنها لم تحتو إلا هجاء وذكماً . فلم يستطع ابن بطلان أن يترك الأمر عند هذا الحد ووجد نفسه مضطراً إلى رد مفصل هو من أطرف الكتب العربية ومن أبدعها سماه « المقالة المصرية » عرج فيه عروجا عليها فائقا يقصده به فضح آراء ابن رضوان كلية . يشتمل على مقدمة وسبعة فصول . يعتذر ابن رضوان في المقدمة إلى خصمه بأنه ألف كتابه هذا امتثالاً لرغبة بعض الجهات الجليلة ، ويناشده بإله السماء وتوحيد الفلاسفة ، أن يجيبه بقلب طاهر نقي خال من درن الغضب ؛ « فثامسطيوس يقول : قلوب الحكماء هياكل الرب ، فيجب أن تنظف كما تنظف بيوت عبادته . وفيثاغورس يقول : كما أن العوام تظن أن الباري تعالى في الهياكل فقط فتحسن سيرتها فيها ، كذلك يجب على من علم أن الله في كل مكان أن تكون سيرته في كل مكان كسيرة العامة في الهياكل » : أما الفصل الأول فهو في العلل التي لأجلها صار المتعلم من أفواه الرجال أفضل من المتعلم من الصحف ، إذا ما كان قبلها للتعليم واحداً ، وهذا عكس ما زعمه ابن رضوان الذي ، كما لاحظنا ، لم يدرس هو نفسه على أستاذ بل تعلم بالمطالعة فقط . والدليل السادس منها يوضح لنا جيداً مقدار الصعوبات والمشكلات التي تلقاها أولئك العلماء الناطقون بالضاد عند دراستهم للكتب العلمية اليونانية : « يوجد في الكتاب أشياء تصد عن العلم قد عذمت في تعليم المعلم ، وهي اشتراك الأسماء ، والتصحيح العارض من اشتباه الحروف بعدم النقط ... وسقم النسخ ورداءة النقل ... وذكر ألفاظ مصطلح عليها في الصناعة ، وألفاظ يونانية لم يترجمها الناقل وهذه كلها معوقة عن العلم . وقد استراح المتعلم عن تكلفها عند قراءته على المعلم ، والبيان السابع يبنى على إجماع المفسرين أن فصلاً من فصول أرسطو لو لم يسمعه ثاوفرسطس وأوذيس من المعلم نفسه لما فهم قط من الكتاب . فاما الفصل الثاني فهو في أن الذي علم الطالب من الكتب علماً

الأرض مستو، جهاتها مكشوفة للشمس والرياح الأربع، وأهلها مع هذه الخصال المدة المضادة لمصر محتاجون من التدبير المبرد أقل مما يحتاج إليه أهل مصر وما والاها والمصريون محتاجون إلى أكثر منه كثيراً. فلهذه العلل عدلت بهم عن الأشياء الحارة إلى الأشياء الباردة على موجب قانون الصناعة. وإذا كان عذري قد اتضح بادنى عناية، وبأن خطي من عجل في تعليل من غير ارتاء، فما ظن الشيخ باناس يجرى في العالم يجرى الأنجم الزهر، أبصارنا عند بصائرهم تجرى تجرى بصير الخفاش عند عيون العقبان في ضوء النهار، لاسيما المؤيد أبو زيد حنين بن اسحق الذي منح الله البشر علوم القدماء على يده، قدووا العقول إلى اليوم في ضيافته يمتارون من فضله ويعيشون من بره،

ويزعم ابن بطلان أن عمل خصمه تقليل من ذلك الاحترام الواجب لسلف العلماء كإقراط وغيره من جهابذة الفن، كما أن إهمال كتب الأولين تقود ولا شك إلى هلاك المرضى. يؤيد ابن بطلان قوله هذا بما جرى بينه وبين بعض تلامذة ابن رضوان؛ فلتلك ينبغي لابن رضوان أن يعلم الثبان تعليماً صحيحاً ولا يشيع عند الأحداث تحبط الاسكندرانيين في تفاسيرهم وجوامعهم للكتب الست عشرة، ومنهم اصطفن وماربنوس وجاسيوس واركيلانوس وانفيلانوس وبلاذيرس ويحيى النحوي المنجد البطل المحب للتعلم. ولعل الشيخ يتعذر عليه معرفة أسمائهم على الحقيقة بالعربية. وهؤلاء مفسرو كتب الصناعة الطبية ليست شعري كيف يذمهم في عمل جوامع كتب فسروا فصوصها وعرفوا فصوصها، ثم يحيى الفصل الخامس في مسائل مختلفة، والفصل السادس في تصفح مقالة ابن رضوان الهجائية التي قال فيها على سبيل المبالغة أن يساله ابن بطلان ألف مسألة ويساله هر مسألة واحدة. قال ابن بطلان جواباً عن هذه المقالة. إن الخطباء والأطباء والفلاسفة لكل واحدة من تلك الفرق طريقة تسلكها في المحاور، وأورد لكل واحدة من تلك الطرق أمثلة من تاريخ الآداب اليونانية؛ أما طريق ابن رضوان فهو - كما زعمه ابن بطلان - هجاء محض من غير وزن وقافية.

أما السب بقبج الخلقة الذي قد اجتراً ابن رضوان أن يوجهه إلى ابن بطلان فيرده هذا باو في الذكاء والفظانة ذا كراً أقوال سقراط وأفلاطون وجالينوس؛ مورداً بعض أعلام الآداب العربية تجردوا من جمال الشكل مثل الجاحظ وعبد

رديثا ثار عليه باعتقاده أن الحق محال شكوك يعسر حلها. والفصل الثالث في أن اثبات الحق في عقل من لم يثبت فيه المحال أسهل من اثباته عند من ثبت في عقله المحال. أما الفصل الرابع فهو في أن من عادات الفضلاء إذا قرأوا كتاباً من كتب القدماء ألا يقطعوا في علمائها بظن دون معرفة الأمر على الحقيقة، يتضح فيه احترام ابن بطلان للعلماء الأقدمين من اليونان ومن بعدهم كل الوضوح. قال: «إن من عادة القدماء إذا وقعت عليهم المطالب، ولاح لهم فيها تباين وتناقض، أن يعودوا إلى التطلب، ولا يتسرعوا إلى افساد المطلب. فإن أرسطو بقي يرصد القوس الكائن عن القبر أكثر عمره فما رآه إلا دفتين؛ وجالينوس واظب على تطلب السكون الذي بعد الانقباض سنين كثيرة إلى أن أدركه... وشيخنا أبو الفرج عبد الله بقي عشرين سنة في تفسير ما بعد الطبيعة ومرض من الفكر فيه مرضاً كاد يلفظ نفسه فيه. وما منهم رحمهم الله إلا من أنفق عمره في العلم طلباً لدرك الحق. هذا والذي في عقولهم بما بالفعل أكثر مما بالقوة، فإن كنا وما بالقوة فينا أكثر مما بالفعل أخذنا إلى الطعن عليهم ضحك الحق منا وخسرنا أشرف ما فينا. ولذلك يجب على كل نسمة عالمة دونهم في المرتبة إذا رأت أقوالهم متباينة ألا تقطع بقول فيهم إلا بعد الثقة». ثم أورد المؤلف أمثلة كثيرة من كتب أرسطو وجالينوس وإقراط وأضاف إلى كل هذا مع صغر شانه بقياس تلك الطائفة المعدودة الدفاع عن نفسه في مسألة وصف التدبير المبرد بمصر خلافاً لبغداد، وحقته اختلاف الهواء. يقول في خصائص بغداد: «بغداد بلد شمال ليس بكدر الماء، ولا يختلف الأهوية، ولا تنقطع عنه الأمطار في الشتاء، بل قد ينزل فيها الثلج من السماء، ويحمد لكثرة البرد شطاً دجلة وتزيد مياهها عند زيادة المياه، وتأتي فواكهها وأزهارها في أوانها من فصول السنة، لا يكاد يرى فيهم مقشور ولا جرب، ولا من به ضيق نفس ولا حكة إلا في الندرة. أرضها قطب اقليم قال فيه أرسطو إنه يثبت الأذكياء، قلباً اختار أهله للنسل من جُلُب من البلاد الجنوبية، فلماذا أوجههم على الأكثر يعض مشربة حمرة، وأخلاقهم طاهرة، وطباعهم كريمة؛ ليست أرضها في وهدنة فحرقها الشمس وتفرقها كثرة المياه وهي من أسباب العفونة نعم، ولا في غربها بحر ولا في شرقها جبل في سفحه مقبرة وتتراق منها الأبخرة، وتعكسها الريح الغربية إلى المدينة، لكنها في بسيط من

وتركوا مكالمته فيما تستأنفونه منه ، ولا تلتفتوا إلى شيء يقوله بل نزلوه بمنزلة إنسان قد خلوط ووسوس ، فهو أبداً يهذو ويهذى فلا يستحق أن يرث له ولا يرحم قط ،

هذا غاية ما يسمح لي الوقت به من شرح تلك المناظرة بين الطبيب والفيلسوفين . حاصل القول أن الخصمين مع كل ما لاحظناه بينهما من الاختلاف من جهة النشأة والتربية والبيئة والدين والأخلاق دانا بعلمهما إلى الفكرة اليونانية ديناً شديداً

كانا به يعترفان ويفتخران ، يجتهدان في التشبه بالعلماء الأقدمين ، كما أن علوم الأوائل كانت عنصراً لازماً لمدينة البلاد الإسلامية في القرن الخامس . هذا هو العصر الأخير لآثر العقلية اليونانية العلمية في الشرق الأدنى قبل أن تسير إلى الاضمحلال التدريجي حتى تلاشى . فإن السلاجقة الذين يوافق ابتداء سيادتهم عصر ابن بطلان وابن رضوان لم يعنوا بتجديد النظام السياسي للناحية الشرقية من عالم الإسلام فحسب ، بل قاموا أيضاً بتأييد السنة وبمحاربة كل الحركات العقلية التي يعتبرونها مخالفة لها ، فكان

لعلوم القدماء حظ غير موفور ، لأن بعض المحافظين استمروا — يسيئون الظن فيها خصوصاً بعد ما انتفع بها القرامطة والفاطميون في لباس تعاليمهم الباطنية ظواهر الحقيقة العلمية

ورغماً من هذا فقد جاء في القرون المتأخرة من حين إلى حين بعض علماء مبرزين خلعوا عن أنفسهم تلك الأغلال ، وأظهروا الروح العلمية الخالصة غير ملتفتين إلى شكوك من دونهم . من هؤلاء الفيلسوف الأندلسي ابن رشد (المتوفى سنة ٥٩٥هـ) ، والجهنزي

موسى بن ميمون (المتوفى سنة ٦٠١هـ) والطبيب المصري ابن النفيس (المتوفى سنة ٦٨٧هـ) مكتشف الدورة الرئوية للدم ؛ إلا

أنه للأسف بقي أولئك الأفاضل في أوطانهم غرباء منفردين لم تقدر آراهم ولم تنتشر ، على حين كان ابن بطلان وابن رضوان — من المعبرين عن الحركة العقلية العامة في زمانهما التي اشتركا فيها مع رهط كبير من معاصريهما . لم تخل العلوم الأخرى غير الطبيعية والطبية من ذلك التدهور العلمي الذي نشاهده ابتداء من القرن السادس ؛ وهذا حجة ساطعة لقيمة تأثير الفكرة اليونانية على الأعمال العقلية في كل نواحيها .

ومهما يكن من شيء فإن ما تناولناه في بحثنا هذا يصور لنا صورة واضحة لضحى العلوم اليونانية العربية في بلاد الإسلام يوسف شخت

بني الحسحاس ، وفي النهاية يستفتي ابن رضوان عن خلقه هو نفسه قائلا : « لو أن رجلاً استفتى بفتوى نسختها : ما يقول الشيخ وفقه الله في رجل أسود اللون ، مضطرب الطبيعة والكون ، غليظ الشفتين ، منتشر المنخرين ، جاموس الوجه ، بقرى العينين ، قليل الأنصاف ، محب المراء والخلاف ، قلق المشية جهر النعمة ، يفتينا في ذلك مأجوراً من الله ، للزومه أن يفتي بما نسخته : الجواب ومن الله المعونة : النفس الفاضلة تابعة لأشرف كفايات الهيولى فهي توجب عن اللون المشرب حمرة وعن التخاطيط الخبيثة الأخلاق الكريمة ، وهذه المعدادة هي اضداد هذه ، فالنفس التابعة لها غير فاضلة . وكتبه علي بن رضوان على مذهب القدماء وبحسب تفسير الصناعة الصغيرة ،

وبعدتد يدافع ابن بطلان عن حنين ابن اسحق فيما يرميه به ابن رضوان . فإن المسئلة الوحيدة الجديرة بالاعتبار تلخص — قال — في اختلاف بين حنين وجالينوس في الظاهر فقط ، كما أن الاختلاف بين أبي حنيفة وبين أبي يوسف ومحمد ابن الحسن من الجهة الأخرى في نكاح الصابئين وأكل ذبائحهم اختلاف في الفتوى فقط

أما الفصل السابع والأخير فهو يتضمن فخص مفردات كثيرة من أغلاط ابن رضوان ، وينتهي بانذاره بحساب يوم القيامة ، فسأطال به في الحق إذا جلس الله لفصل القضاء واستغاث المرضى وأشخصوا الأطباء ، وحضرات الملائكة الكتبة ، وخرست الآلسن الناطقة ، وشهدت القوارير الصامتة ، بدلائلها كأنها على الحالة الحاضرة ، وظهر الغلط ، واعترف الأطباء بالذي فرط ، يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم ... ولينحقق أن ... لنا موقف حساب ، ويجمع ثواب وعقاب ، يتظلم فيه المرضى إلى خالقهم ، ويطالبون الأطباء بالأغلاط القاضية بهلاكهم ، وإنهم ليسأخون الشيخ كما سألته ... ويتحقق أنهم لا يرضون منه إلا بالحق المبين ، لم يتأخر ابن رضوان في الرد على ابن بطلان مرتين . فلما وجد

نفسه عاجزاً عن النقص الصحيح لذلك الكتاب رجع إلى أسلوبه الكريه المعتاد . أما الرد الأول فقد عجل تأليفه قبل فحسه كتاب ابن بطلان كله ؛ وأما الثاني ففيه تلخيص لكل ماجرى بينهما من وجهة نظر مؤلفه ، وغرضه الصريح دعوة أطباء مصر والقاهرة إلى مقاطعة ابن بطلان . يقول ابن رضوان في آخره : « فهذا فيه كفاية في أن تعجبوا من أمر هذا الرجل ، وتضحكوا منه